

## الهوية العربية الإسلامية لبلاد المغرب - قراءة تاريخية في منطلقات التشكل من خلال نموذج القيروان-

### The Arab-Islamic identity of the Maghreb - a reading of the premises of formation through the Kairouan model-

د. فتحية بلحاج\*

جامعة منوبة، تونس.

Fathiabelhaj27@gmail.com

ط. د/ عادل مسعودي(\*)

جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

adel.messaoudi@univ-bskra.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/ 24 تاريخ القبول: 2025/05/ 20 تاريخ النشر: 2025/06/ 03

اعتبرت القيروان أقدم مدينة إسلامية في منطقة المغرب وقع تعميرها من طرف القبائل العربية التي قدمت إلى البلاد التونسية لكن هذا التعمير أو التوطين رافقه العديد من الخصوصيات تمثلت أساسا في الصعوبات التي تعرض لها الفاتحون، وفي المدة التي قضاها القادة العسكريون للسيطرة على المنطقة.

ولئن مثل عقبة ابن نافع، القائد الرمز لهذه العملية، فإن أبرز ما أنجزه هو تأسيسه لمدينة جديدة وقع التخطيط لها على طريقة المدن العربية الإسلامية المستحدثة مع الفتح الإسلامي إلى جانب المسجد الذي أصبح أحد أهم رموز المدينة الإسلامية.

لقد صارت القيروان المحطة الرئيسية لتعمير القبائل العربية الوافدة من الجزيرة العربية ومن الشام، لكن هذا الاجراء لن يمر دون إحداث تداعيات كان أهمها المتعلق بهوية البلد، فقد استطاعت القيروان أن تنتقل

بالبلد من اللسان اللاتيني إلى اللسان العربي ومن الدين المسيحي إلى الديانة الإسلامية فكان هدف هذه الورقة البحثية الإجابة عن الكيفية التي تمت بها عملية التوطين للعنصر العربي وما خلفته هذه العملية من تداعيات سواء كان ذلك على الصعيد الثقافي أو الاجتماعي أو السياسي وعلى هوية البلد والمنطقة ككل.

الملخص

\* المؤلف المرسل

|                  | الكلمات الدالة                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                              |
|------------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>Abstract:</p> | <p>القيروان؛ القبائل العربية؛ الهجرة؛ التوطين؛ الهوية؛ المدينة</p> <p>Kairouan was considered the oldest Islamic city in the Maghreb region that was rebuilt by the Arab tribes that came to Tunisia, but this reconstruction or settlement was accompanied by many peculiarities, mainly represented in the difficulties faced by the conquerors, and in the period spent by military leaders to control the region.</p> <p>Since Uqba represented Ibn Nafi', the symbolic leader of this process, his most notable achievement was the establishment of a new city that was planned in the manner of Arab-Islamic cities developed with the Islamic conquest, in addition to the mosque, which became one of the most important symbols of the Islamic city.</p> <p>Kairouan has become the main station for the reconstruction of the Arab tribes coming from the Arabian Peninsula and from the Levant, but this measure will not pass without causing repercussions, the most important of which was related to the identity of the country, as Kairouan was able to move</p> <p>In the country from the Latin tongue to the Arabic tongue and from the Christian religion to the Islamic religion</p> <p>The aim of this research paper was to answer how the process of localization of the Arab element was carried out and the repercussions of this process, whether on the cultural, social or political levels, and on the identity of the country and the region as a whole</p> <p>Keywords: Kairouan; Arab tribes; migration; settlement; identity, city.</p> |

## 1. مقدمة:

تعتبر القيروان أقدم مصر أسسه العرب ببلاد المغرب والأندلس سنة 50-670م وتجاوز اشعاع المدينة البلاد التونسية حاليا ليشمل كامل بلاد المغرب وقد لعبت القيروان دورا هاما في تغيير مجرى التاريخ في منطقة الغرب الإسلامي والانتقال بها من مجال يعتنق ساكنته في غالبيته المسيحية ويتكلم اللاتينية والبربرية إلى مجال دينه الإسلام ولغته العربية.

ولقد جاءت أهمية تأسيس القيروان والدور الذي لعبته في إنجاح وتعزيز جانب الحضور العربي وانتشار الدين الإسلامي، ولعل الأسطورة التي ترافق كل عملية تأسيس هي التي ساهمت في إعطاء هذه الهالة، فمن عقبة بن نافع الذي رافقه في فتوحاته خمسة وعشرون من أصحاب النبي

وما صاحب هذه العملية من قداسة إلى الطريقة التي تم بها اختيار الموضوع وبناء المسجد كلها عناصر تساهم بشكل أو بآخر في تقديم صورة تستوجب من الباحث التمعن والتمحيص. لقد تغذى البلد طيلة مئات السنين بالحضارة الرومانية التي توجت بالانتساب إلى العقيدة المسيحية التي سيطرت على مملكة شاسعة، لذا تحتل هذه المرحلة منزلة مهمة في التاريخ التطوري لأفريقية ومنطقة الغرب الإسلامي المتولدة عن الفتح العربي، فبداية من القرن السابع طورت هذه البلاد شخصيتها الذاتية وهويتها التي ستكون هوية البلد ككل وهوية المنطقة بشكل أعم.

لقد فتح العرب افريقية في القرن السابع بعدما تغلبوا على المقاومة المستميتة التي أبداهها الأهالي ورؤسائهم البيزنطيين، وقد اعتنقت افريقية الإسلام بصورة تكاد تكون تامة وبفضل عاصمتها القيروان وجامعها الكبير جامع عقبة ابن نافع.

إن السرعة التي تم بها تعريب المنطقة وأسلمتها شبه الكاملة طرح مشكل تاريخي أمام المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين أثناء الفترة الاستعمارية ولم يجدوا له إجابة، ومن بين هؤلاء الذين طرحوا مثل هذه الأسئلة نجد المؤرخ والمستشرق الفرنسي جورج مارسلي فهذا المؤرخ مثالا تساءل كيف لمنطقة -يعني شمال افريقيا- كانت أرضا لاستقبال المسيحية وانتشارها خاصة بمنطقة قرطاج وبالمدن الساحلية الأخرى والتي أنجبت رجال دين مثل تيتوليان الذي عاش خلال نهاية القرن الثاني والذي يقر بأن المسيحية في الفترة التي عاش فيها كانت تمثل الأغلبية، وأنجبت شخصيات دينية هامة مثل سان سيبريان وسمعت وانتصرت لكل الأفكار الإصلاحية والتجديدية التي نادى بها سانت أوغسطين، إضافة إلى الكم المعبر من الكنائس التي سادت أراضيها في مختلف المراكز أن يتغير المشهد بهذا الشكل في قرن من الزمن؟<sup>1</sup> ونفس الموقف نسجله أيضا لدى المؤرخ والمستشرق الفرنسي روبر بارنشفيك الذي لاحظ "أن المسيحية ما فتئت أن تراجع أمام الإسلام في القرون الأولى من العصر الوسيط إلى أن تلاشت بصورة تكاد تكون تامة، ويشير ذات المؤرخ الى قضية الأسقفيات البالغ عددها مائتان في القرن السابع من الميلاد التي لم يبق منها سوى خمسة سنة 1053م.<sup>2</sup>، بعيدا عن الإيديولوجيات ومختلف

اشكال الحماس الديني وبعيدا عن المرامي و الأغراض السياسية للمشاريع الكولونيالية التي يتبناها بعض هؤلاء

ارتأينا الخوض في هذه المسألة بنفس الإمعان النقدي لمنهج المؤرخ لملامسة الطريقة التي مكنت العنصر العربي من التمكن في نشر لغته ودينه انطلاقا من مدينة القيروان التي تعد نموذجا معياريا لدراسة الشخصية العربية الإسلامية لجل الحواضر و المدن التي ستظهر بعدها و تصطبغ بذات صبغتها.

واعتمدنا في هذه الورقة البحثية على مقارنة تحليلية تأويلية لما ورد في كتابات أبرز المؤرخين المعاصرين من العرب و من الفرنسيين المختصين في هذه المسألة، وبالتالي ستكون اشكاليتنا كالتالي :- كيف تمكن العنصر العربي من التوطين و تعمير مدينة القيروان؟ وبالتالي إضفاء الطابع العربي عليها.

ثم ماهي الصعوبات التي واجهتها؟

وماهي تداعيات هذا الحضور على إفريقية -البلاد التونسية - خاصة باعتبارها أولى نقاط الالتقاء وبالتالي المغرب الإسلامي عامة في بعدها الثقافي والاجتماعي؟

## 2. تأسيس مدينة القيروان بين خصوصية النشأة وبطى الفتوحات.

### 1.2 . تعريف المدينة:

عادة ما يتم الانتباه والتركيز عند تأسيس المدن إلى البعد الجغرافي بل يتجاوزه إلى التدقيق في الطوبوغرافيا التي تكون حاسمة في مسيرة حياة مدينة ما. لكن هذا الاختيار بقدر ما يلعب دورا هاما منذ بدايات التأسيس بقدر ما يثبت عجزه عن معرفة ما سيترب عن هذا الاختيار وهذا الإنشاء من تحولات وتطورات على مر تاريخ هذه المدينة، وينطبق هذا على المدن بشكل عام بما في ذلك المدن الإسلامية ومدينة القيروان تحديدا.<sup>3</sup>

كما أن مفهوم المدينة يفترض وجود تحضر وتجمع سكاني، لكن التحضر في حد ذاته لا يفرز تلقائيا المدينة مع أن الاستقرار ضمن سياقات تاريخية كما هو الحال بالنسبة للقيروان يمكن أن يقدم لنا بوادر لعملية تأسيس

لقد كان للغة العربية ولظهور الإسلام وقعهما المباشر والعميق في نشأة هذه المدينة وفي تحديد ثقافتها وهويتها، فالأماكن التي وقع فتحها من قبل العرب وأفزرت مدنا من نوع خاص، فبظهور الإسلام ظهر البعد القومي الثقافي للإسلام ظهورا قويا<sup>4</sup>

ولقد استعمل العرب مصطلحات مختلفة للتعبير عن المدينة على غرار مصطلح "مصر" في العراق و"الفسطاط" في مصر و"القيروان" في إفريقية للدلالة على التجمعات العربية المحضة خارج بلاد العرب التي كانت تعبر عن واقع جديد بالنسبة لما كان عندهم ولما وجدوه<sup>5</sup>

وقد حدد المستشرق الفرنسي جورج مارسلي تعريفا للمدينة المنشأة أو المستحدثة من قبل عرب الفتح أورده على أنها عمل من محض إرادة شخص<sup>6</sup> أي أنها مدينة مستحدثة ظهرت نتيجة عمل إرادي "اختياري" لشخص ما اختار موقعها وخط حدودها وارتأى شكلها المستقبلي.<sup>7</sup>

إن الفكرة الأساسية التي تستند إليها النظرية الإستشراقية هي أن المدينة المنشأة تشكل استثناء في تاريخ الإسلام لأنه من النادر أن يكون قد سبق تصورها أو تصميمها وهي إن وجدت فليس لصالح مجموعة معينة، بل لصالح الأمير، وبذلك تكون مدينة أميرية أو مقرا للقصر، وترتبط بوجود أسرة حاكمة، ينبغي أن يضاف إلى ذلك دون شك بروز أمرين مستجدين بخصوص ظاهرة المدينة في فترة الفتوحات يتمثلان في الاتجاه العسكري الواسع المدى وادماج الرحل، وكغيرها من المدن فإن مدينة القيروان خضعت لمنطق عام، مثلها مثل سائر المدن والدول على نمط التصور الخلدوني حيث انتقلت من مرحلة النشأة إلى التطور ثم التدهور<sup>8</sup>

حيث نشأة على شكل مدينة عسكرية الغرض في سياق مسار الفتح وغدت مركز مستقبل للجيوش و عاصمة لبلاد المغرب ثم كانت محل انظار حركات المعارضة بالإستهداف والتخريب لتتراجع عن دورها الريادي المشع ومكانتها الإنفرادية في بلاد المغرب امام نمو امصار منافسة لها غرب البلاد.<sup>9</sup>

لكن لنرى الموقع الجغرافي لمدينة القيروان؟

مدينة القيروان هي مدينة وسط البلاد التونسية تبعد عن العاصمة ما يقرب من 157 كلم و57 كلم عن مدينة سوسة المدينة البحرية، وهي تقع في سهل فسيح، وهذا السهل الفسيح

يرتفع فوق مستوى سطح البحر بما يقرب 60 مترا. فهي منطقة بعيدة نوعا ما عن البحر لكن في نفس الوقت كانت تمثل مجالا رعويا مهما بالإضافة إلى غراسة الزياتين التي تحيط بها. وقد أثبتت كل الأبحاث الأركيولوجية التي وقعت بالقرب من القيروان " على أن المدينة كانت واقعة تحت السيطرة الرومانية لكنها دمرت وأصبحت خرابا عند دخول المسلمين بها.<sup>10</sup> وقد أكد علماء الآثار أنه يوجد في موضع القيروان قبل تمصيرها من قبل العرب حصن روماني وهو ما يتماشى مع نتائج الدراسات الأثرية التي أقيمت بهذه المنطقة والتي تثبت وجود تعمير سابق للحضور العربي ويذهب المؤرخ التونسي أحمد مشارك إلى وجود موقعين قديمين في المكان الذي بنيت عليه القيروان<sup>11</sup> كما أن المدينة كانت على طريق القوافل وهي الممر الجيد للوصول إلى إفريقيا الرومانية.

## 2.2 مراحل التأسيس

ما تجمع عليه المصادر العربية أن الفتح لمنطقة المغرب العربي قد تطلب وقتا طويلا ما يقرب من سبعون سنة كما مرت هذه الفترة بمرحلتين الأولى فترة السرايا والثانية الفتح المنظم. ويجب لفت الانتباه هنا، أن العرب كانوا يعرفون بلاد الشام وبلاد فارس ومصر قرونا عديدة قبل أن يفتحوها في حين أنهم كانوا لا يكادون يعرفون شيئا عن المغرب، وهذا الجهل بأوضاعه الداخلية هو ما جعل بلا شك الخليفة عمر ابن الخطاب يرفض فكرة الغزو أول ما عرضت عليه من قبل القائد عمر بن العاص أي أنه أمر بالبدء بحملة استكشافية قبل التفكير في الغزو الفعلي<sup>12</sup> ووسمها بالطابع الإسلامي وتغير مجرى تاريخها الحضاري وإكسابه شخصيته الإسلامية التي لا تزال ماثلة الى اليوم، وبطبيعة الحال سيكون هذا التغير مرتكزا على مستقر اللوافدين الجدد فكانت القيروان أولى قواعد الإرساء و أولى صفحات ارتسام الشخصية العربية الإسلامية في بلاد المغرب.

لقد تم تأسيس القيروان على مراحل وبعد تردد فيما يخص موضعها حيث كانت البدايات سنة 647/27-648م تحت قيادة "عبد الله بن سعد ابن أبي سرح" وقد سلكت فيما بعد

الحمالات التي تلت تلك الحملة نفس الطريق التي عبدها هذا القائد وهو الطريق الجنوبي من إفريقيا الرومانية ولا عجب في ذلك فالعرب أهل بر لا يخافون الصحاري<sup>13</sup> وأثناء الفتنة الكبرى انقطعت الفتوحات ولم تستأنف إلا مع وصول معاوية للحكم فأعاد العرب المحاولة من جديد تحت قيادة معاوية بن حديج سنة 665/45م وقد سلكت الجيوش العربية نفس طريق ابن أبي سرح وقد انتهى بهم المطاف إلى موضع القيروان، وكان انتصار سبيطة قد أفضى إلى القضاء على كل مقاومة رومية، فأصبحت الجيوش العربية تخرقها وتتجول فيها دون كبير مشقة.<sup>14</sup>

عزل معاوية بن أبي سفيان القائد "معاوية بن حديج" ووجهه إلى إفريقية عقبه ابن نافع الفهري سنة 670/50م الذي وقع اختياره على وسط البلاد وتحديدًا على مكان القيروان اليوم، أي على منبسط من الأرض يسع الجيوش وخيلهم ودواب نقلهم من نوق وما إلى ذلك ويليق أن يكون معسكرًا على حدود دار الحرب بعيدًا عن مباغثات البحر.<sup>15</sup>

وهكذا ومع عقبه أصبحت القيروان عاصمة ولاية إفريقية "وأنشأ بهذه المدينة مؤسستين كان لا بد منهما عند كل فتح إسلامي جديد، الأولى ذات طابع روحي وهي مسجد القيروان والذي سيعرف ويسمى لاحقًا بمسجد عقبه والثانية ذات طابع سياسي وهي دار الإمارة.

وخلال فترة ولاية عقبه الأولى بين 670/50م و675/55م عمل على ترتيب أموره الداخلية وتنظيم عاصمتها. لكن هذه العملية توقفت إثر عزل عقبه سنة 675م وخلفه في هذه المهمة "أبو المهاجر دينار" الذي بنى بدوره مدينة جديدة خاصة به وهي معسكر "تكيروان"<sup>16</sup>، وهنا يجدر الإشارة إلى ما ذكرناه سابقًا حول فكرة المدينة الأميرية التي أشارت إليها الدراسات الإستشراقية و تتساءل عن هذا الموقف الذي اتخذ أبو المهاجر: -هل هو تأكيد لفكرة المدن الأميرية المكرسة للصبغة القبلية و الذهنية العربية؟ أم هي اختيارات استراتيجية عسكرية تستهدف النصر في الحرب لا غير؟ وما يؤكد التساؤل الأول هو موقف عقبه حين عودته في ولايته الثانية واساره على استقراره في القيروان و هجر تيكروان أبا المهاجر ولا قرينة تاريخية تساند طرحنا و تساؤلنا الثاني المتعلق بالاختيار العسكري لقرب المدينتين من بعضهما.

عموما اتصف القائد الجديد باللين تجاه البربر ولما انتقلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية استعاد عقبة مأموريته سنة 62هـ / 682م وكان أول ما بادر به من اصلاح قبل التوغل في فتح المغرب حتى الاستشهاد تحويل العاصمة من جديد وإرجاعها إلى مكانها الذي كان قد اختاره لها مع أصحابه في ولايته الأولى "وفي هذه المرة استقرت العاصمة وكانت نهائية"<sup>17</sup> فقد اختار عقبة مدينة القيروان لأسباب استراتيجية وسياسية، إذ أصبح من تقاليد الجيوش العربية بعد فتوحاتهم تأسيس مدينة اسلامية خاصة بعناصر الجيش الفاتح وأبنائهم وأحفادهم على غرار الكوفة والبصرة.<sup>18</sup> كان عقبة يعي جيدا أهمية تأسيس مدينة تكون مقرا ومعسكرا لجيشه وأهلهم وربما أيضا ليؤمنوا من احتجاجات قد تأتي من أهل البلاد.

والذي يهمنا في هذه العملية وكما ذكر المؤرخ التونسي محمد الطالبي أن تأسيس القيروان ونشأتها لم يكن دفعة واحدة بل تم على مراحل، وهوما سيترتب عنه نتيجة أخرى مباشرة لكنها مهمة وهو أن حضور العنصر العربي لم يكن أيضا دفعة واحدة بل كان على مراحل. ومهما يكن من أمر في تأسيس القيروان فقد قتل عقبة من قبل جيش كسيلة سنة 64/683م وبقتله سيفتح باب جديد وتجربة جديدة مع حسان ابن النعمان حيث استرجع المدينة سنة 72/691م وتمكن من الوصول إلى قرطاج التي فتحها سنة 76/695م وطرد البيزنطيين ثم تصدى للكاهنة التي هزمها سنة 79/698م.

إذا أصبحنا أمام وضع جديد جنى ثماره موسى بن نصير الذي عين واليا على منطقة المغرب سنة 85/704م وكان أول والي مستقل غير خاضع لوالي مصر، لقد أنهى موسى بن نصير بسهولة عملية الفتح عندما عرض على شيوخ البربر أن يقاسموه أمجاد ومغانم فتح الأندلس. وكما ذكرنا منذ البداية فإن مرحلة التأسيس بالنسبة لمدينة القيروان قد تميزت بالبطء والعسر فكيف يمكن فهم ذلك؟

### 3.2. فتوحات متعثرة و عسيرة:

يمكن تقديم العديد من التأويلات التي تساهم في تفسير مجمل الأسباب التي ساهمت في هذا التعثر، منها ما هو مرتبط بالأزمات التي مرت بها الخلافة في المشرق والفتنة الكبرى التي

حصلت بعد مقتل عثمان، ومنها ما له علاقة بالشأن الداخلي المحلي للقيروان ومنطقة المغرب بشكل عام. فنجد ما يبرر هذا التعثر:

-مسألة تعدد وكثرة الأعداء والخصوم الذين واجههم العرب المسلمون، فقد واجه الفاتحون الجدد كل من البيزنطيين وبقايا الرومان والبربر وخاصة الاحتجاجات التي قام بها كل من كسيلة والكاهنة، حيث أن السكان البربر من أهل البلاد الأصليين تمرنوا على الدفاع على أرضهم وكان من الصعب اختراقهم.

ومن المحتمل أن يكون من أسباب تعثر الفتح وصعوبة انقياد البربر هو الممارسة والمعاملة القاسية التي تميز بها عقبة بن نافع وبعض القادة من العرب الفاتحين،

-إن تأسيس القيروان من قبل العرب مثل حدثا باعتبارها المدينة العربية الأولى ببلاد المغرب كانت عملية صعبة لكنها لم تعزل عن إطار الفتوحات الإسلامية، وبحسب المؤرخ الفرنسي جورج مارسى فإن تأسيس القيروان تم في نفس السنة التي تم فيها بناء المسجد 670م<sup>19</sup> لقد تجاوز فتح بلاد المغرب كل الفترات التي فتح فيها العرب بلادا أخرى، فقد بدأ على يد عمرو بن العاص بعد أن انتهى من فتح مصر سنة 21/ 642م وانطلق إلى برقة في السنة الموالية واستمرت الفتوحات حتى انتهت على يد موسى بن نصير حينما استولى على طنجة وإقليمها سنة 709/ 91م.

كما أن المراحل التي مر بها الفتح الإسلامي كانت عسيرة، سواء على المستوى المركزي أو في مستوى الأراضي التي فتحوها، حيث تعددت الخصومات على الخلافة وتكاثرت الحروب الداخلية وهو ما عرف على تسميته بالفتنة الكبرى، و تحولت دولة الخلافة إلى ملك وعصية وهو ما سيؤثر حتما على نوعية المهاجرين وعلى البعد القبلي الذي سيتكون في القيروان ولاحقا في منطقة بلاد المغرب والأندلس، فمع بداية الفتح كان في قافلة صحابة وتابعون وهو ما طبع الحملات الأولى وميزها، وأعطى شرعية أكثر للعرب الذين حلوا بمدينة القيروان.

إن الموقع الجغرافي المعقد والشاسع لبلاد المغرب عموما وللقيروان جعل التعامل مع المنطقة جغرافيا وبشريا في غاية التعقيد والصعوبة في ظل غياب تخطيط عسكري واضح يستغله العرب

ولتأكيد هذا الاتجاه فإن الفتح العربي لشمال إفريقيا اعتمد على ثلاث مراكز رئيسة في الشرق الأول مصر وهي المحطة الرئيسية التي يعود إليها القواد الفاتحون وقد انتقل للعيش بها الكثير من العرب "فأصبحت المركز الأول للحضور العربي في شمال إفريقيا، الثانية برقة لقربها من مصر والثالثة القيروان التي

بناها عقبة ثم جدها بعد أن هدمها أبو المهاجر دينار وبنى فيها مسجدا وانتقل إليها الكثير من العرب والتابعين أما بقية مناطق المغرب فلم يستطع العرب أن يركزوا فيها قوة ولا أن يعمروها بحيث تصبح مركزا لتجميع قواهم المحاربة وعاصمة للحكم العربي،<sup>20</sup> لذلك فإن القيروان ولفترة طويلة اعتبرت المقر الرئيسي للعرب في منطقة المغرب الإسلامي والمستقطب الأول للحضور العربي من الوافدين في هذه الجهة، لأنه لم تتكون مدن إلا بشكل متأخر مما سيدعم حضورهم بشكل استثنائي في بلاد المغرب وفي القيروان تحديدا لذلك كانت طريقهم في الحرب طويلة.

-العامل القومي وقد جاء هذا العامل كنتيجة نضوج قومية العرب وارتفاع روحهم المعنوية لا سيما بعد نشر الدعوة في عهد النبي ﷺ في عدة أجزاء من الجزيرة العربية ثم استرجاع وحدتهم التي هددتها حركات التمرد والارتداد في خلافة أبي بكر.

كل هذه العوامل مشتركة لعبت دورا مهما في حركة الانتشار خارج الجزيرة العربية كما ساعدت العرب في العمليات العسكرية التي خاضتها ضد أعدائهم في الشام والعراق،<sup>21</sup> لكنها حوافز أكثر منها أسباب مباشرة كما أكد على ذلك المؤرخ هشام جعيط الذي يرى أن الأسباب الرئيسية تتمحور حول عنصرين اثنين، هما الإرادة الحربية وايدولوجية الصراع.

### 3- القيروان بين توطين العنصر العربي وتخطيط المدينة الإسلامية

إن عملية التعمير التي تعرضت لها مدينة القيروان خلال القرن الأول للهجرة الموافق للقرن السابع ميلادي من قبل القبائل العربية يقتضي منا إيضاح مصطلح "العربي" ووضعه في سياقه التاريخي حتى نفهم التحولات العرقية والديمقراطية التي حصلت في هذه المدينة.

### 3-1- في تعريف "العربي"

يمكن القول إن عروبة العرق واللغة انطبقت دون ريب على مجموعة عرقية وجدت بالجزيرة العربية مع أن الشعور بالانتماء العرقي أو بالهوية الثقافية كان شديدا حتى قبيل ظهور الإسلام في هذه المنطقة ولعل ذلك كان أشد عند الرجل منه عند سكان المدن.

ولذلك بقي في المخيال "أن العربي هو ذلك الشخص من غير أهل المدينة أي من البادية، فقد حافظ مفهوم عرب هو أيضا على البدو من الجماعات اللغوية كافة بدون تميز، وعلى هذا تسمى العرب الأوائل لغويا، وقد برزت الهوية العربية القائمة على اللغة ضمن المجال الشامي والظاهرة المفارقة أن هذا البروز ارتبط بالمدن، لكن ستصبح الهوية جديدة تندمج في مجال أوسع هي هوية اللغة والدين والقيم<sup>22</sup>

وقد وجب أن يظهر الحدث الإسلامي كظاهرة استثنائية وأن يقع الالتحام الذي حصل بين اللغة وبين الدين الجديد الذي نزل بلسان عربي لترتفع بذلك بلاد العرب وتدخل التاريخ من أبوابه الكبرى.

إن التمييز الذي لا يزال راسخا إلى يومنا هذا، يعتبر في نظر سكان شمال إفريقيا ناتج عن أصل عرقي، وأنه يعبر عن اختلاف جنسي ظل محسوسا عبر تقاليد عريقة. "ولئن أمكن التأكيد على أن السكان المحليين هم من أصل بربري، فبالعكس من ذلك، من الأمور الوهمية اعتبار العرب كأعقاب العائلات القادمة من الجزيرة العربية خلال القرون المتقدمة من العصر الوسيط، ذلك أن الأفواج الأولى لاسيما من الحضريين والعسكريين كانت قليلة العدد بحيث لا تستطيع أن تكون في البلاد مجموعات عرقية هامة يمكن تمييزها على الدوام<sup>23</sup> فكل ما يمكن أن نخلص إليه أن أهم العناصر والفوارق الواضحة والثابتة التي حملها العربي لمنطقة القيروان وللمغرب تمثلت أساسا في اللغة والدين.

بعد هذا التوضيح في معنى العربي يمكن القول أن تأسيس المدينة العربية الإسلامية بما جاء نتيجة الهجرة العربية، وبسبب قرب العرب الفاتحين من مخزومهم البشري، فإن استيطانهم كان يتصف بكثرة العدد وقوة التجمع ولم يكن مشتتا مبعثرا وهذا ما لم يتم بنفس الطريقة بالنسبة للقيروان حيث أن المسافة الفاصلة بين مركز الحكم الذي كان بالمدينة ثم فيما بعد بدمشق

كانت بعيدة وبالتالي فإن فتح البصرة والكوفة في فترة عمر كانت لها خصوصية مختلف في التوقيت يعني 17 هجري وفي القرب من يثرب وبالتالي فإن حل الصعوبات كان مقدور عليها. لا شك أن كل حملة عسكرية عربية ابتداء من حملة عمر بن العاص الذي حاول الاستمرار في الزحف من مصر على ليبيا، حتى موسى بن نصير الذي قفز من المغرب إلى الأندلس كل حملة كانت تترك في طريقها مجموعات من العرب جاؤوا مع الجيش فاستقروا واستوطنوا. وتدعم هذا التوطين والاستقرار مع تأسيس عقبة بن نافع لمدينة القيروان كعاصمة فكانت سببا ومبعث استقرار لحامية عربية إسلامية، هذه الحامية لم تغادر القيروان ولكنها تابعت مسيرة الجيش ومسيرة عقبة في اتجاه مزيد من الفتوحات نحو الغرب توالى الفتوحات والحروب، رغم خطورة الحملات العربية وما خلفته من قتلى في المعارك المتوالية وإنما تركت بقايا الجيوش واللاجئين والفارين.

يذكر المؤرخون العرب بأن الولاة الأولين في العهد الأموي كانوا معززين بأكثر من مئة وخمسين ألفا من العرب والمشاركة جاز منهم أربعون ألفا إلى الأندلس وتوزع الباقون حول القيروان<sup>24</sup> والأرقام التي يذكرها المؤرخون المسلمون تتجاوز أحيانا حد المعقول.

### 3-2- مدينة القيروان وتوطين القبائل العربية

لا بد من أن نؤكد منذ البداية وفي هذه النقطة التي هم التعمير وتوطين القبائل العربية، أنه لا يوجد أي رقم ثابت عن عدد الجنود العرب الذين دخلوا منطقة القيروان أو في اتجاه الغرب، هناك اشارات عند ابن عذاري في "البيان" والذي يعتبر من أكثر المصادر التي يمكن اعتمادها في مسألة الأرقام :

الجدول 1: تعداد الجند الوافد الى إفريقيا.

| السنة      | القائد                   | تعداد الجند | المصدر           |
|------------|--------------------------|-------------|------------------|
| 50هـ/670م  | عقبة بن نافع الفهري      | 10000 رجل   | البيان، ج 1/ص 23 |
| 63هـ/683م  | زهير بن قيس البلوي       | 6000 رجل    | البيان، ج 1/ص 32 |
| 78هـ/697م  | حسان بن النعمان          | 40000 رجل   | البيان، ج 1/ص 35 |
| 123هـ/740م | كلثوم بن عياض<br>القشيري | 30000 رجل   | البيان، ج 1/ص 54 |
| 146هـ/763م | ابن الأشعث               | 40000 رجل   | البيان، ج 1/ص 72 |
| 155هـ/771م | يزيد بن حاتم             | 60000 رجل   | البيان، ج 1/ص 78 |

<sup>25</sup>

المصدر: من اعداد الباحثين اعتمادا على الأرقام الواردة في البيان لابن عذاري. والجملة 186 ألف رجل لم يستقر جميعهم في افريقية، بل إن كثيرا منهم سقطوا في ساحات الوغى التي امتدت من قابس إلى طنجة، وعاد بعضهم إلى الشرق وأرغم آخرون على الانتقال إلى الأندلس.<sup>26</sup>

لكن ما هو العدد الحقيقي لمن استقر منهم في منطقة القيروان؟

في الحقيقة يبدو الحديث عن هذه المسألة أمر صعب ومحفوف بقلّة الدقة عند تناوله، فلا يمكن لاحد أن يوضح ذلك. "يمكن أن يكون عددهم بضعة عشر من الآلاف ويجب ضرب هذا العدد في ثلاثة أو أربعة اعتبارا لعدد النسوة والأطفال الذين كانوا يصاحبون الجيوش آنذاك، وينبغي أن نعتبر أيضا الجمع الذي يصعب تقديره، والمتركب من التجار وحاشية الأمراء المتوالين والموظفين ودعاة الدين والمغامرين وأنواع اللاجئين الذين تلاحقهم السلطة المركزية وأشخاص آخرين كثيرين جذبهم سراب الغنيمة أو التزامات متنوعة.<sup>27</sup> لقد كان الهدف من هذه المدينة بتجميع كل العرب بإفريقية والذين كانوا يتكونون من جنود محاربين وبعض عائلاتهم. وبقيت القيروان مثلها مثل البصرة والكوفة لمدة قرن مدينة مفتوحة لاستقبال المهاجرين العرب<sup>28</sup>

بالإضافة إلى كل هذا وبحسب وجهة نظر بعض المؤرخين فإن ما حرك العرب للتعيمير والفتح هو الرغبة في "إدخال الدين الحق في كل مكان وفتح مختلف أقاليم الأرض لهذه الحقيقة، وهذا أمر بديهي، لكن الدوافع النبيلة لم تغذي بمفردها الحماس القتالي الذي اتصف به المهاجرون المشاركة فقد كان لسحر الكسب جاذبية خاصة، حيث لم يهمل الوافدون التفكير في الغنيمة، ولا شك أن هذه الغنيمة كانت هامة<sup>29</sup>

لقد استقبلت القيروان بالإضافة إلى الجنود المحاربين مجموعة هامة من التابعين المعروفين، كما أقام بهذه المدينة مجموعة هامة من الأشراف العرب الذين يمثلون كل أنواع القبائل - مضر وقيس وتميم وقبائل يمنية وقريش وأنصار وغيرهم كثيرون - قد استقروا بالقيروان. وقد لجأ إليها المشاركة عند الحاجة، إذ شعروا فيها بالأنس والطمأنينة أكثر مما وجدوه في ديارهم أحيانا.<sup>30</sup>

### لكن كيف كانت التركيبة القبلية لهؤلاء المهاجرين العرب؟

لقد اشتغلت العديد من الدراسات على معرفة وتحديد أسماء القبائل التي حلت بالقيروان عند تأسيسها وأدركت أن هذه العملية أي هجرة القبائل العربية مثلها مثل الفتح والتأسيس قد تمت على مراحل كما أن الفتح والتعيمير "شاركت فيه شخصيات مرموقة في تاريخ الإسلام كما أكدت عديد المصادر وجود مختلف القبائل العربية، وفي مدينة القيروان أخلط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان.<sup>31</sup>

ونظرا للصعوبات التي رافقت الفتح والمدة الطويلة التي استغرقها فقد لاحظ محفوظ الغديفي في أطروحته حول القيروان خلال الثلاث قرون الأولى للهجرة، أن القبائل التي ساهمت في الغزوة الأولى (27-647م) قد تكون عادت للحصول على المزيد من غنائم، وقد يكون بعضها فضل الاستقرار في مصر أو عاد إلى الشرق في فترة تميزت بالاضطرابات، كما يمكن ملاحظة أن هناك بطون أو عناصر لا تقوم إلا بعمليات الفتح وتنتمي أغلب القبائل التي ذكرتها المصادر إلى القبائل اليمنية (قحطان - عدنانية)، والمعروف أن القبائل اليمنية كانت عماد الدولة السفينانية (نسبة لمعاوية ابن أبي سفيان) إذا كانت القبائل العربية اليمنية في صدارة القبائل التي اتجهت إلى إفريقية ومن المؤسسين الأوائل للعنصر العربي بالقيروان ومنطقة الغرب الإسلامي.<sup>32</sup>

إضافة بطبيعة الحال العنصر القرشي كما قام صاحب الأطروحة بعملية جرد كاملة ودقيقة وقدم لنا قائمة بكل القبائل والبطون والعشائر الي كانت موجودة في القيروان والتي شاركت في الفتح<sup>33</sup>

يمثل الجند أهم فئة بالمدينة وأهم عنصر من حيث عدد السكان الذين عمروا مدينة القيروان هذا المصر الذي تجمع فيه الجند، سيكون قاعدة الارتكاز الهامة لسلطة العرب في المغرب وأيضا الجزء الأهم من القاعدة السكانية للمدينة والمكون الأساسي للقبائل العربية خاصة اليمنية التي كانت موجودة وبكثافة وبسيطرة عددية في عمليات الفتح والاستقرار الأولى بالقيروان، وسيمثل الجند ولفترة العنصر الأساسي الذي سيكون منه لجيش المسلمين في إفريقية كما سيكون له دور باعتبار عدده في الحياة العامة وفي فرض تصورهم للمجتمع<sup>34</sup>

كما أن الصراعات التي كانت موجودة بين القبائل العربية والتنافس قد انتقل من المشرق إلى القيروان وإلى الغرب الإسلامي بشكل عام، ولكن بخلاف ما سبق يمكن الجزم بأن القبائل العربية مثلت الفئة المحظوظة حيث "كان منهم الأمير وقادة الجند والجند والعلماء والقضاة والتجار وكبار الملاكين"<sup>35</sup>

لقد تعلق الأمر إذا بعناصر قبلية كاملة هاجرت بامتعتها ونسائها وأطفالها وكان لهم حرية الاختيار في اتخاذ عديد المواقف والقرارات، ولم تقم الدولة إلا بتنظيم هؤلاء فعرضت عليهم بناء المستقبل، همهم الوحيد أن يجدوا موطنًا للاستقرار ودارا للهجرة ووطنا ويحققوا حلمهم في الاستقرار.

### 3-3- القيروان أول نموذج لتخطيط المدينة الإسلامية بالغرب الإسلامي.

لم يكن المظهر المتعلق بتخطيط المدينة العربية الإسلامية بارزا قبل مجيء الرسول (ص) وإقامته بيشرب، ويبدو أن دوره كان حاسما في تغيير المشهد الحضري وإرساء نمط جديد من التخطيط للمدن الإسلامية، وكانت النقطة المحورية لهذا المركز الجديد المسجد وداره الخاصة وقد تشكل منهما مركب متلاصق. وهو مكان التجمع الدائم والمقر الديني وقلب السلطة كلما زادت بروزا

ونما حتى أصبح المركز روح هذا التجمع البشري، لقد حدد هذا المركب (المسجد - دار الامارة) بالخصوص نموذجا لكل الحضارة الاسلامية.

إن نموذج المسجد أولا الذي سيمثل مكان العبادة وتجمع المؤمنين والملاحظ أن الأمر يتعلق بوحدين مكانيتين متميزتين لكنهما متصلتان اتصالا عميقا إنما الصلة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أشد وأقوى، وأما في الكوفة والبصرة ودمشق فقد صار التمييز بين القصر والمسجد أكثر وضوحا<sup>36</sup> ونعتقد أن الأمر كذلك بالنسبة لمدينة القيروان، حيث استقر الحكم في عهد النبي ﷺ بالمسجد ذاته وكانت الدار متجهة إلى الحياة الخاصة، بينما بالكوفة تواجد العامل السياسي والديني في نوع من جدلية التواصل والانفصال في حين أن الوحدة كانت تامة زمن الرسول (ص) مع تفوق المسجد على الدار.

لقد عمل الرسول (ص) وهو المؤسس لدلالات حاسمة ولأعمق رمزية للمدينة المسلمة التي جعل منها هيكلا إسلاميا مؤسساتيا لا مدينة فحسب بل مدينة بالمعنى السياسي.<sup>37</sup> ولتكتمل تماما هذه الصورة في عملية تخطيط المدينة العربية الإسلامية وجب إضافة "أسواق المدينة" التي نظمها الرسول (ص) وقام بنقلها إلى داخل المدينة، والأسواق ظاهرة ستبقى في أية مدينة إسلامية ووجود هذا التقليد سيصبح واضحا في كل المدن الإسلامية المستحدثة وبالتالي فعلى ضوء هذه اللحظة التأسيسية على مستوى تخطيط المدينة العربية الإسلامية ستحذو القيروان على خطى مدينتي الكوفة والبصرة ورغم أن اختطاط الكوفة كان ابتكارا وهو جيد من حيث التصور والانجاز رعت فيه التركيبة القبلية للعرب الفاتحين، فإن مدينة القيروان لن تخرج من هذا الإطار ومن السياق العام حيث تم تحديد الهندسة العامة خاصة المركز السياسي الديني وأقرت بذلك القبائل. ووضع داخل المركز مركب المسجد والقصر وهكذا تم تحديد العناصر الأولية والاساسية للمصر وتحولت بشكل تطوري إلى مدينة مخططة بمقتضى تصور مؤسسها الأول، حيث خطط عقبة لمدينته هذه المدينة المعسكر التي اتخذها جيش الفتح تحولت تدريجيا إلى مدينة فجعل مساحتها تمتد على 7 كلم ووقع تقسيمها بحسب الانتماء القبلي فمثلا الفهرين وهم من القرشيين قد تركزوا في شمال المسجد الكبير وحافظت هذه الأحياء القريبة من

المسجد على هذه التقسيمات مراعية نفس هذا التقسيم المعتمد على الجانب العرقي أو العقائدي.<sup>38</sup> كما أنه من المرجح في عملية تخطيط المدينة التي قام بها عقبة أنه اختط أولا دار الامارة ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم واختطه ولم يحدث فيه بناء.<sup>39</sup>

**ما يمكن ملاحظته في تخطيط وهندسة مدينة القيروان المعمارية هو التالي :**

-هناك إرادة ورغبة للتمدين بل أكثر من ذلك كانت هناك ضرورة ملحة لتأسيس نقاط للارتكاز بالنسبة للقبائل العربية ففي البداية مثلت معسكرات لتتطور فيما بعد إلى مدن لها وظائفها وعلاقاتها، ذلك أن المدن باعتبارها تجمعاً للحاميات العسكرية في بداية الأمر لم تكن مبنية حسب تصميم مسبق كانت تجمعات عسكرية تتميز بسرعة نموها الأول ولعل هذا النمو تم دون شعور واقعي بالعناصر الموجودة في التخطيط، إن نمو المدينة يظهر بمثابة السلسلة من المراحل التي تعكس تطورها وليس نتيجة تخطيط مسبق، لا نظن أن مدينة القيروان أسست بطريقة وقع فيها وضع تخطيط خاص بها من طرف الفاتحين العرب بل هي ناتجة عن تطور بطيء تم على مراحل ظهرت فيه المدينة كتعبير عن إرادة شخص.

إذا بعد أن أصبح الموقع المركزي في كل المدن الإسلامية هو الأساس إذ لم ينفصل أبداً لا الجامع ولا الأسواق وأن الجوار العضوي بين المسجد والأسواق هو ما سيبقى من مفهوم المساحة العمومية كالسمة الأكثر خصوصية للمدينة الإسلامية، بل إن هذه السوق المركزية المتضخمة ابتكار إسلامي على حد تعبير هشام جعيط.<sup>40</sup>

كما أن فكرة تخطيط المدينة والطابع الهندسي لها والمكون من المركز السياسي الديني وبالتالي سيعطينا حضوراً لنمط هندسي معماري خاص بالحضور العربي الإسلامي وسيبقى ماثلاً في كل المدن الإسلامية بدأ بمدينة القيروان والمدن المغاربية التي فتحها المسلمون فيما بعد.

#### **4- نتائج توطين القبائل العربية لمدينة القيروان.**

لقد كانت القيروان مصراً عربياً خالصاً على حد تعبير المؤرخ هشام جعيط إذ أنشأت من لا شيء، وإذا قلنا مدينة عربية فذلك يعني لساناً عربياً فكيف استطاع هذا اللسان العربي والدين الإسلامي من أن يغيرا من وجه المدينة ومن هوية البلاد و مسارها التاريخي ؟

#### 4-1- النتائج الثقافية

إن الفتح العربي بالنسبة للسكان البربر هو سيادة دولة الخلافة ولا تعني بشكل تام سيادة اللغة العربية وهي تختلف في هذا عن بلاد المشرق خاصة في العراق وسوريا أين بدأت حركة التعريب قبل مئتي عام على الأقل قبل الفتح الإسلامي.

ويمكن اعتبار التعريب في شمال إفريقيا مسألة مهمة جدا وفي علاقة وطيدة بالنتائج الثقافية لعملية التوطين العربي، فقد إرتبط بالشرق بعدما كانت هذه المنطقة مرومنة وبالنسبة لعملية التعريب فإنها لم تذهب بشكل متوازي مع انتشار الإسلام، بل هناك من يعتبر عملية التعريب مرتبطة بتعليم وحفظ القرآن، وهي متصلة بهجرة العرب سواء كانوا في شكل مجموعات أو في شكل أفراد.

لكن انتشار اللغة وتمكنها من التغلغل داخل منطقة القيروان لا يعني ذلك أنها انتشرت في أجزاء كبيرة من بلاد المغرب وربما وقع استعمالها كلغة نخبة بالنسبة للمدن الإفريقية<sup>41</sup> ويعتبر المؤرخ الفرنسي جورج مارسى أن تطور الدين في المنطقة هو الذي سارع بانتشار اللغة وعملية التعريب، وبالتالي ارتباط الدين بانتشار اللغة<sup>42</sup> ففهم القرآن يتطلب اللغة العربية وبفضل رجال الدين الذين قاموا بنشر اللغة وعبر هؤلاء تمكنت مدينة مثل القيروان من الإشعاع لغويا وثقافيا، ويأتي تعريب اللسان مع تعريب الانسان، ومن الطبيعي أن يقدم الفاتحون لغتهم أثناء دخولهم سواء كان هذا اللقاء سلميا أو حربيا، حيث سادت اللغة العربية في البلاد التي فتحتها الجيوش العربية.

كما ساهم بناء المسجد وتأسيس مدينة القيروان مصدر دعاية كبيرة جدا للإسلام ومن الأسباب المهمة لانتشاره ومساهمته بشكل حاسم في انتشار اللغة العربية، وفي الحقيقة لا بد من إقرار بأن هناك اقتران بين تعلم اللغة وتعلم الدين خاصة داخل المساجد، فحيثما وصل العرب المسلمون كانوا يسارعون في تأسيس المساجد، فحيثما وجد مسجد وجد إلى جانبه تعلم اللغة والقرآن لكن الاستثناء كان لجامع عقبة بن نافع، حيث لعب جامع القيروان دورا كبيرا في الثقافة والعلم وصار منبرا للعلوم العربية وللعلوم الإسلامية فقادت الحركة العلمية وقادت المدينة

هذه العملية فامتد اشعاعها في كل الاتجاهات وأصبحت من أهم معاقل المعرفة في العالم الإسلامي<sup>43</sup>

#### 4-2 النتائج الاجتماعية

لم يكن الفتح فقط عملية سياسية تركز مركز الدولة الموجودة في دمشق ولكنه كان مصدر ثروة للدولة وقادة الجيوش أنفسهم لذلك كان كل من الولاة يجهد نفسه ويهق الشعوب التي يفتحها بجمع الأموال والغنائم، إن الصراع القبلي الذي كان موجودا بين العرب في المشرق انتقل إلى المغرب، فقد كان الجيش باعتباره مؤلفا من عديد القبائل المتنافسة والمتضاربة مصالحها، كما كان هناك خلاف بين العرب المقيمين والعرب الوافدين الجدد والذي تحول إلى صراع لأن المقيمين أصبحوا يعتبرون بلاد المغرب بلدهم فهم أجدر بالسلطة والاستئثار بالخيرات والوافدون الجدد يشعرون بأنهم وفدوا لحماية البلاد ومن أجل السلطة، كان هناك صراع بين فريقين من العرب غذته القبلية والولاء للحكم المركزي.

إن العرب وخاصة الزعماء كانوا يشعرون بنوع من الاستعلاء على الشعوب التي يفتحونها، والانتصار عادة ما يحيل إلى الشعور بالكبرياء وبحق الغالب على المغلوب، وقد سبب هذا الاستعلاء عددا من المشاكل بين العرب الفاتحين والمغاربة كما أن استئثار العرب بالمال والسلطة والجاه وملكية الأرض أوجد العديد من الحساسيات بين العناصر المختلفة.<sup>44</sup>

وقد كان لهذه الوضعية الجديدة نتيجة متوقعة لا مناص منها مع حضور العرب بإفريقية، هو يقظة العصبية سواء كانت محلية أو عربية وتبعته خصومات عنيفة نشبت بين مختلف فرق الجند المنتمية إلى قبائل عربية، وهذه الظاهرة المرتبطة بالعصبية لن تكون مقتصرة على مدينة القيروان والمرحلة التأسيسية الأولى بل ستتواصل مع بقية الفتح في الأندلس فقد ذكر لفي بروفنسال "أن المهاجرين مع سلالات الجند الذين استوطنوا من قبل اسبانيا الطبقة العربية الاجتماعية التي دعت بأهل الشام بينما يجمع العرب الآخرون الذين كانوا أول من شارك في الحياة الاجتماعية بعد الفتح مباشرة في طبقة أخرى هي طبقة البلدي، وقد مضى على هؤلاء وأولئك أمد طويل في شبه الجزيرة الاسبانية قبل أن تهدأ فيما بينهم خصوماتهم القبلية القديمة

التي انتقلت معهم من الشرق إلى الغرب، ولكي يضعوا حدا لتحريض النزاع العربي القديم الكامن بين القيسيين واليمنيين.<sup>45</sup>

تأسيس التراتب العرقي أين أسست النشأة والحضور العربي بالقيروان التراتب العرقي، فالعرب المنشؤون للمدينة المسلمة يشعرون بتمايز وتفوق تجاه السكان الأصليين، كما كان العرب يشكلون أكترية ديمغرافية في الحواضر الحديثة وكانوا أصحاب السلطة والامتيازات الاقتصادية في المدن<sup>46</sup>، فتراكتت الثروة لدى العرب من أرض زراعية وملكيات شاسعة وخيل وماشية وذهب وفضة حتى صارت هذه الخصائص من مميزات المعمرين من القبائل العربية، وبذلك يؤسس الحضور العربي بالقيروان والإسلام كدين جديد شرعية اخضاع العربي للعرق البربري ثقافيا واقتصاديا وديموغرافيا وسياسيا، ويجعل العربي مميزا وانتمائه العرقي وحده يعطيه صلاحيات وشرعية<sup>47</sup>

### 3-3 النتائج السياسية

على المستوى السياسي فقد أقصي البربر عن السلطة بعد الحضور العربي، حيث كان الوالي وأعوانه كلهم من العرب<sup>48</sup> وهو من بين الأسباب التي تفسر الثورات التي حصلت مع بداية القرن الثاني للهجرة، وبالتالي فإن وصاية الشرق والتأثير الشرقي<sup>49</sup> أصبح حاضرا بقوة ومسيطرا على الساحة بعدما عرفت المنطقة عبر تاريخها انفتاحا على حضارات ووفودا قادمة عبر البحر فالموقع الجغرافي لبلاد افريقية جعل من الفتح البري ممنوعا أو غير مفعّل، كما أن الفتوح والهجرات السابقة للهجرات العربية مثل الفينيقية والرومانية والوندال والبيزنطيون والاسبان خاصة في العصور القديمة والحديثة جاءت كلها عن طريق البحر، فالعرب لم تكن شعوبا بحرية، فكان الفتح مغامرة كبرى وبذلك تحطمت القاعدة الأساسية على أن الهجرة البشرية للبلاد يمكن أن تمر عبر البر<sup>50</sup>

كما إن البعد عن مركز الخلافة في دمشق ساعد على أن تكون للمنطقة خصوصيتها وأن تكون لها نوع من الاستقلالية فكلما تقدمت هذه الجيوش العربية الفاتحة وكلما ابتعدت عن المركز كلما أثرت في الوقوف في وجه الفتح وأعطته طابعا من الاستقلالية وشرعية وخبرة.

إن القيروان بحكم بعدها عن المركز وحدة وطول المقاومة التي حصلت سمحت بنوع من الاستقلالية للمنطقة عن مركز الخلافة وتأسيس دول شبه مستقلة فيما بعد مثل الدولة الاغلبية بإفريقية والرستمية بالجزائر والأدارسة بالمغرب

#### 4. خاتمة:

لقد نحتت مدينة القيروان منذ تأسيسها هويتها واتجهت إلى شكل شبه نهائي لوضعها الثقافي ولوظيفتها الروحية ورسالتها الثقافية التي عبرت عنه هذه المدينة بتبنيها للسان العربي وذلك عن طريق استقبالتها لأفواج من الفاتحين العرب، كما تمكنت هذه المدينة من أن تفتك نموذجاً لم يكن موجوداً في السابق سواء من حيث تخطيط المدينة الذي أمنت فيه وراعت التقسيم القبلي آخذة بعين الاعتبار الطبوغرافيا أو من حيث وظائفها حيث أمنت هذه المدينة أهم الوظائف السياسية والدينية والعسكرية.

كان تخطيط المدينة من الأشياء الجديدة التي ساهمت في تغير المشهد الحضري في بلاد إفريقية وفي منطقة الغرب الإسلامي عموماً حيث وقع تحول من المخطط الروماني إلى المخطط العربي الإسلامي ولا شك أن هذا التخطيط قد مر بمراحل وتطور ولم يكن دفعة واحدة وحصل تحت دافع الاحتياجات وبحكم طول مدة الاستقرار فإن القبائل العربية التي صارت لها مصالح على عين المكان قد تحررت من البحث عن الغذاء لكنها لم تتحرر من عاداتها وتقاليدها كانت موجودة عند العرب ومن الدفع إلى حكم مركزي يعتمد على العرق.

إن القيروان مثلت لحظة عبور وتحول من العروبة القديمة إلى الإسلام المهيكل، هي في الحقيقة لحظة كانت تبحث فيها الحضارة الإسلامية عن نفسها في ظلام الولادة والتكوين لحظة ولادة القيروان ذات أهمية مؤكدة بالنسبة للمؤرخ

ويمكن أن نعتبر دراسة مدينة القيروان خلال النصف الأول من القرن السابع ميلادي هو بمثابة تاريخ لبداية الحضور العربي بشمال إفريقيا شديدة التمسك بالدين وبهويتها.

إن الهجرة العربية إلى بلاد الغرب الإسلامي وتأسيس مدينة القيروان سبغت العنصر العربي وستكون المركز الأساسي لتوسيع الفتوحات وستكون المختبر الأول للتعايش بين العنصر البربري

المحلي والعنصر العربي الوافد، والمهم التأكيد في النهاية أن دراسة الحضور العربي لأول مرة بالغرب الإسلامي وبمدينة القيروان تحديدا إنما يتعلق الأمر بنشأة حضارة مختلفة ورمزا لثقافة جديدة بالمنطقة.

إن القيروان بحكم بعدها عن المركز وحدة وطول المقاومة التي حصلت بها سمحت بنوع من الاستقلالية للمنطقة عن مركز الخلافة وتأسيس دول شبه مستقلة فيما بعد مثل الدولة الأغلبية بإفريقية والرسومية بالمغرب الأوسط والأدارسة بالمغرب  
لقد أقصى البربر عن السلطة بعد الحضور العربي، فقد أصبح الأمير أو الوالي وأعوانه كلهم من العرب وهو من بين الأسباب التي تفسر الثورات التي حصلت مع بداية القرن الثاني للهجرة.

### هوامش

<sup>1</sup> - Gorges Marçais : *la berber musulman et l'orient ou moyen age*,  
editions montaigne, Alger, 1945, p40.

<sup>2</sup> - روبر بارانشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ق13 الى نهاية ق15، ترجمة الساحلي حماد، دار

الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص132

<sup>3</sup> - هشام جعيط، نشأة المدينة الإسلامية، ص150

<sup>4</sup> - نفسه، ص200.

<sup>5</sup> - نفسه، ص203.

<sup>6</sup> - جورج مارسلي، ص203.

<sup>7</sup> - محفوظ الغديفي: مدينة القيروان و نواحيها خلال القرن الأول و الثاني و الثالث للهجرة دراسة في العمران و المجتمع، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة تونس، 2001-  
2002، ص17.

<sup>8</sup> - محمد حسن: المدينة و البادية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، تونس، 1999، ص

<sup>9</sup> - الحبيب الجنحاني: القيروان التأسيس و الإزدهار، تونس، 1991، ص65

<sup>10</sup> - Encyclopedie de l islam: Maisonneuve , paris , 1978, p 856.

<sup>11</sup> - محفوظ الغديفي: مرجع سابق، ص21.

- <sup>12</sup> - عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2012، ص 122.
- <sup>13</sup> - محمد الطالبي: دراسات في تاريخ إفريقية و الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1982، ص 114.
- <sup>14</sup> - نفسه، ص 100.
- <sup>15</sup> - نفسه، ص 120.
- <sup>16</sup> - حسين مؤنس: تاريخ المغرب و حضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، دار العصر الحديث للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ج 1- ص 90.
- <sup>17</sup> - الطالبي: نفسه، ص 124.
- <sup>18</sup> - محفوظ الغديفي، مرجع سابق، ص 24.
- <sup>19</sup> - Gorges Marçais : *Tunis et Kairouan les villes d arts celebres*, H Laurens editeurs, Paris, 1937, p48.
- <sup>20</sup> - عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ بلاد المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 87.
- <sup>21</sup> - راضي دغفوس: إشكالية الإنتشار في الإسلام المبكر، مركز النشر الجامعي، تونس، 2002، ص 100.
- <sup>22</sup> - هشام جعيط: المرجع السابق، ص 45.
- <sup>23</sup> - روبر بارنشفيك: المرجع السابق، ص 162.
- <sup>24</sup> - عبد الكريم غلاب، مرجع سابق، ص 114.
- <sup>25</sup> - ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب. تحقيق ج.س كولان، و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1963، ص 43.
- <sup>26</sup> - محمد الطالبي: الدولة الأغلبية التاريخية السياسي، تعريب المنحي الصيادي و حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص 24.
- <sup>27</sup> - نفسه، ص 27.
- <sup>28</sup> - *Encyclopedie de l islam*, ibd, p859.
- <sup>29</sup> - محمد الطالبي: تاريخ الدولة الأغلبية، مرجع سابق، ص 27.
- <sup>30</sup> - نفسه، ص 47.
- <sup>31</sup> - محفوظ الغديفي، المرجع السابق، ص 57.

- <sup>32</sup> - محمد حسن: الجنود التاريخية لبلاد المغرب- جدلية السلطة و المجال و المجتمع، مجمع الأطرش، تونس، 2022، ص320.
- <sup>33</sup> - محفوظ الغديفي: مرجع سابق، ص55-56-57.
- <sup>34</sup> - نفسه، ص372.
- <sup>35</sup> - نفسه، ص327.
- <sup>36</sup> - هشام جعيط: مرجع سابق، ص210.
- <sup>37</sup> - نفسه، ص211.
- <sup>38</sup> - *Encyclopedie de l islam: ibd, p859.*
- <sup>39</sup> - محفوظ الغديفي: المرجع السابق، ص26.
- <sup>40</sup> - هشام جعيط، مرجع سابق، ص186.
- <sup>41</sup> - *Gorges Marçais : la berber musulman et l'orient ou moyen age, ibd, p40.*
- <sup>42</sup> - *ibd, p15.*
- <sup>43</sup> - عبد الكريم غلاب: المرجع السابق، ص188.
- <sup>44</sup> - نفسه، ص141.
- <sup>45</sup> - لفي بروفينسال: (د.ت). حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص48.
- <sup>46</sup> - عادل بالكحلة: الإنسان والبحر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 1999، ص15.
- <sup>47</sup> - نفسه، ص30.
- <sup>48</sup> - نفسه، ص29.
- <sup>49</sup> - *Gorges Marçais : la berber musulman et l'orient ou moyen age, ibd, p15.*
- <sup>50</sup> - عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2012، ص141.